في يوم من الايام ، قلت لامي : سأسافر .

فلم تترقرق الدموع في عينيها ، ولم يكتس وجهها باية كآبة انما قالت متسائلة بفتور :

ـ هل سترجع غنيا ؟

وعندما اتى ابي في المساء ، رمقني بنظرة حادة ثم سألني :

ـ ماذا تقرأ ؟

وابتدأت اقرأ بسرعة :

ـ اقتحم ارسين لوبين الغرفة شاهرا مسدسه الضخم .

فضحكت امي بينما صرخ ابي بحنق : أخرس .

وتابعت القراءة بحماس :

ـ وضحك ضحكة باردة هازئة وصاح : ارفعوا ايديكم .. فتراجع اللصوص الى الخلف مذعورين .

فاختطف ابي الكتاب من يدي ، ورماه الى العتبة .. حيث الاحذية والقباقيب الخشبية ، وقال :

ـ سيعذبك الله .

فاستولى علي حزن قاهر ، وقلت لنفسي : فليعذبني الله حتى أموت . وغادرت البيت في الصباح حاملا زادي ، وطفقت امشي بخطى مسرعة حتى ابتعدت عن المدينة ، ووصلت الى حقول شاسعة . ولم استطع ان اهرب او اختبيء لحظة اقبلت خيول سوداء ، يمتطي صهوتها رجال سمر الوجوه ، عباءاتهم سوداء مطرزة بخيوط ذهبية ، وتلتف حول خصورهم شالات من حرير قرمزي ، ويحملون في ايديهم سيوفا محدودبة النصل ، واحاطوا بي فدب الذعر في قلبي غير اني تصنعت الشجاعة ، وسألت بصوت مرتفع :

ـ هل البحر بعيد ؟

فهتف احد الرجال ..وأظن انه اميرهم :

ـ اصطدناك .. انت عبدنا .

فكدت ان ابكي ، وقلت :

ـ اريد ان ارجع غنيا الى مدينتي .

ـ لن ترجع الى مدينتك .. أتريد ان تموت ؟

ـ لا اريد ان اموت .. ستبكي امي .

ـ لن تبكي امك .

ـ ابي رجل هرم سيموت حزينا .

ـ ابوك سيموت حزينا .

وهكذا ابعدت عن خضرة الحقول والاشجار ، واقتادني الرجال الى صحراء تناثرت في ارجائها الخيام الصفراء . وهكذا امسيت عبدا .. اطهو الطعام .. اغسل الصحون والثياب .. اقدم فناجين القهوة .. انحني بمذلة .. وكنت اشتغل باستمرار ولا انام سوى ساقات قليلة ، وتفاقم سخطي ، فقابلت الامير ، وقلت له :

ـ سأشتغل فقط ثماني ساعات في اليوم كما يأمر القانون .

فقطب الامير جبينه ، وقال بصوت صارم :

ـ سأدفنك حيا في الرمال اذا تكلمت مرة اخرى .

وكان الرجال يملكون نساء كثيرات مختطفات من مدن نائية ، وكانت نجوى احداهن .. امرأة غامضة جميلة عذبة ، تطل من عينيها طفولة عجيبة ، وكانت عندما تكتئب تغني بصوت مثقل بأشجان لا تموت ، وكنت انصت وانا ارتجف واحس باني ما زلت طفلا لم يبتعد هنيهة عن ثدي امه ، وكنت انتحب بمرارة كأن جميع البشر صعدوا قمة العالم ، وتركوني خلفهم رجلا وحيدا مشلولا سقط في اكثر الاودية انخفاضا .

احببت نجوى بضراوة ، واقتحمت خيمتها ذات ليلة .

قالت نجوى : خذني الى البحر .

اين البحر ؟ هل البحر بعيد ؟.. القمر اصفر هزيل مشوه الوجه مثبت فوق صحاري من رمل وقماش ولحم ساخن .. ولقد رجعت السنونوات الى البستان وبكت حينما وجدت اعشاشها القديمة متهدمة.

اين البحر .. الحقل الازرق العاري .. قلت :

ـ سآخذك الى الجبال .

أوه يا ربي .. الجبال فاتنة . سنتسلق الجبال مع الغيوم . سنمتلك وحدنا القمة وستكون مدن العالم تحت اقدامنا كالجواري الخائفات .

همست نجوى : خذني الى البحر .

آه ربما جفت البحار . آه قد تكون المياه سئمت السجن في حفر ضخمة فهربت وتحولت الى غيوم بيضاء متشردة عبر الفضاء الازرق .

ونشجت نجوى وقالت : خذني الى البحر .

فامتدت يداي الى جسدها الناضج . انه جسد امتلكه رجال كثيرون. وشعرت بفتة بكراهية مدمرة تجتاح كياني بينما ظلت نجوى تنتحب وتردد :

ـ خذني الى البحر .

وكانت تربض في جيبي مدية باردة ، فانتضيتها وضغطت قليلا بحدها على حنجرة نجوى ، وكانت يجب ان تخاف وتلوذ بالسكينة غير انها تطلعت الي متحدية بعينيها المبللتين بالدموع ، وقالت باصرار :

ـ خذني الى البحر .

فذبحتها بتلك المدية الصدئة المثلومة الحد ، ثم تسللت خارجا من خيمتها ، وامتطيت جوادا سرقته .. هيا هيا اهرب بي .. واخذ يعدو وكانه ريح شرسة ، وحملني بعيدا عن الخيام ورجالها القساة ونباح كلابها . وغمرني الفرح عندما لاحت لعيني انوار مدينة قريبة ولكني كنت متعبا للغاية فترجلت عن الجواد ، وتمددت على عشب الارض ، وعندئذ تذكرت نجوى ، فالصقت وجهي بالتراب ، وبكيت .. لماذا قتلت نجوى الوديعة ؟.. احبها . اريدها ان تعود الى الحياة .. احبها احبها . وبكي التراب معي ، وقال :

ـ وجهك متعب

قلت : وجهك متعب .

قال : انا بائس .

قلت : انا حزين .

قال : انا احب الغيوم

قلت : انا أحب البحر .
قال : مات القمر .. غرق في بحر مالح المياه .
قلت : لن ابكي لاجله .. ليمت .. انه كتلة من الحجر الصلد الابيض.
قال : القمر امير جميل الوجه يعشق جسدي بخجل .
فكففت عن الكلام ، وغرقت في سبات عميق . وايقظني في الصباح عصفور صغير ينطنط حولي ويهتف :
ـ حسن حسن حسن .
فقلت له : اين البحر ؟
قال بوداعة : انا صغير .. حملتني اجنحتي الى ثلاثة أشجار فقط. أسأل أمي .
فسألت امه الجاثمة على غصن شجرة :
ـ اين البحر ؟
قالت : انا لا اعرف البحر .. والعصافير الهرمة تتحدث عن البحر وعن طيوره البيضاء .
فقلت متسائلا بلهفة : اين العصافير الهرمة ؟
قالت بصوت حزين : ماتت العصافير الهرمة .
فسارعت الى امتطاء الجواد ، واتجهت نحو المدينة الغريبة ، وهناك بعت الجواد في سوق من اسواقها ، واشتريت طعاما .. اكلته بنهم ، ثم اخذت امشي واصوات الفرح تتردد في اعماقي .. واسترعى انتباهي طفل وسيم الوجه يقف عند موقف الباص ويده تمسك بطرف ثوب امه .. ابتسمت له بود غير ان وجهه ظل جامدا كاليت .. وتسمرت طويلا امام واجهة احدى المحال .. وكان هناك سرير صغير فقلت لنفسي هذا سرير طفل .
وراقبت السرير بحنو بينما كانت تتساقط في دمي حسرة همجية ، وشعرت باني سأهلك ببطء اذا لم اظفر ببيت ، وزوجة وطفل يناديني حين اعود من عملي في المساء :
ـ بابا .. بابا .
وتذكرت فتاة توهمت انها تصلح لان تكون زوجة لي ولكنها قالت لي :
ـ انت لا تصلح للحياة الزوجية .. انت متقلب الطباع .. تقضي اوقاتك في الخمارات والمقاهي والشوارع .. ولا تهتم بملابسك ..
وقلت لها آنذاك :
ـ انا انيق جدا واخلاقي مهذبة جدا وفاضلة جدا واصلح جداللحياة الزوجية وكل اوقات فراغي اقضيها في المسجد .
وكنت اتمنى لو اقول لها :
ـ انت سطحية وغبية وتافهة ، ويعجبني فقط ردفاك الضخمان .
وعدت الى المسير ثم وقفت بعد قليل قدام مكتبة كبيرة ، وتأملت الكتب المعروضة خلف زجاج الواجهة ، وقلت لنفسي :
ـ سأقرأ كل الكتب .. سأعبيء في جمجمتي كل ما فرزته عقول البشر . ودلفت الى داخل المكتبة ، وسألت صاحبها الكهل :
ـ ما الفائدة من الكتب ؟
قال : انها للتسلية ..
قلت : النوم مع امرأة مجلب للتسلية اكثر .
قال : الكتب تمنح الحقيقة .
قلت : ما هي الحقيقة ؟
قال : ان تعرف كيف تتجشأ .
قلت : امي لم تقرأ كتبا .
قال : انت ثرثار
قلت : انا بلا بحر .
وتركته ، وخرجت من المكتبة عائدا الى الشارع ، فوجدت فتى منحنيا على الارض يفتش عن شيء ما .. فسألته :
ـ ماذا تفعل ؟
قال : انا ولد صغير .
فسألته مرة ثانية : ماذا تفعل ؟
قال : ابحث عن قطعة من الحجر الكلسي .. سأرسم بها على الارض زورقا ثم اركبه وسينطلق بي نحو البحر .
قلت : خذني معك .
قال : الزورق صغير ، ويتسع فقط لشخص واحد صغير مثلي .
فتابعت مسيري حتى بلغت ساحة أزدحم فيها رجال ونساء ..وقفوا جميعا متجمدين في امكنتهم وكأنهم نحتوا من حجر . وكانوا رافعين وجوههم الصفراء الى اعلى فاغرين افواههم ببلاهة .. سألت احدهم :
ـ لماذا تقفون هكذا ؟
ـ نحن جياع .. ستمطر السماء خبزا .
وما ان سرت بضع خطى حتى سمعت موسيقى شبيهة باستغاثة نائية ، ثم ما لبثت الموسيقى ان اشتدت وانبعث من حناياها صراخ شهوة تبحث عن رجل ما فظ حار ، ولم استطع الصمود والمقاومة طويلا، وخضعت سريعا للموسيقى ، وتبعتها الى قاعة فسيحة سقفها ضوء ابيض شديد السطوع ، ولم اكد اجيل انظاري فيما حولي حتى عزف لحن راقص .. لبى اغراءه نساء ورجال كثيرون ، فاتجهت نحو امرأة تجلس على مقعد من ذهب وقلت :
ـ يا اجمل امرأة ولدت .. يا قمر صحراء بلا ماء .
فقاطعتني المرأة قائلة :
ـ انا ملكة المدينة .. اهرب .. سترقص الافاعي .
قلت : انا قنفذ .
قالت : انا طفل بائس .
قلت : انا رجل وحيد .
فضحكت المرأة ضحكة باردة ذات رنين اجوف وقالت :
ـ انت بلا بحر .
فتهاوى رأسي على صدري .. قطار كثيرة عرباته اطلق صفيره الطويل الشبيبةباغنية يأس.. الارضصلبة والحدائقبلا نهروالنهار لا يملكنجوما، اين البنفسج الحالم بنهدين هاربين من حريق الشمس . لن ينبت البنفسج في الحدائق . رائحة العشب الذاوي يأس التراب .. الحقول ميتة السنابل .. فم الميت بلا مدية .. قوارب سوداء في الشرايين .. العصافير مذبوحة ، وشجرة الرمان معذبة الفم تنتظر مقدم رجل يهرق دمه في ترابها العطشان . انا احب القطارات وخصلة الشعر النائمة على الفأس الملطخ بدم الاشجار .. اقبل رجال ونساء . وتعانقوا بغبطة .. الاشجار العارية تنمو فيأغصانها الاوراقالخضراء .. يا سيوفا باردة اشرقي على الارض الحزينة الوجه .. جثوت على ركبتي .. يا سيدي يا سيدي .. اعط دمي ضحكة طفل .. اعطني بحرا .
ورفعت رأسي بعد فترة مديدة من الزمن فاذا بالقاعة قد تلاشت ، وبقيت وحيدا في شارع طويل مظلم تتردد فيه بقايا موسيقى متوحشة.
فقلت لنفسي بحرقة : اين البحر ؟
وتخيلت رمالا صفراء وصخورا مبللة وبواخر ضخمة مداخنها تقذف دخانا كثيفا وقوارب ذات اشرعة بيضاء ، وسمعت بوضوح صوت الموج المترجرج .
وفجأة اقبل نحوي رجال بلا رؤوس صائحين :
ـ هذا قاتل الاله .
وجروني الى بناية ، بدت لعيني باحجارها الصفراء المنتصبة عبر الفراغ الرمادي كحربة ضخمة توشك ان تثب لتطعن وجه السماء . واحسست برعب يدب في اوصالي ، وتزايد رعبي عندما ادخلت الى غرفة تناثرت في ارجائها بضعة كراسي ومنضدتان من خشب .. قبع خلف احداها رجل طويل القامة عريض الكتفين .. له وجه وسيم.
قال لي على الفور :
ـ من انت ؟
فقلت بصوت حاولت جهدي ان لا يكون مرتجفا :
ـ انا رجل غريب .
قال : لا تكذب .. اعترف بانك قتلت الاله .
قلت بصوت متهدج : لم اقتل احدا .
فقال المحقق :

ـ اسمع .. اني لا اريد ان اكون قاسيا معك فانت شديد الشبه باخي .. اخي الصغير تشاجرت معه فخرج الى الشارع غاضبا دهمته سيارة .. مسكين اخي .. سأسلخ جلدك اذا لم تتكلم .

قلت بحرارة : انا بريء .. انا بريء .

فهز المحقق راسه عدة مرات ، وضغط باصبعه على زر جرس ، ولذت بالصمت بينما كان العالم يبدو لي مشتتا ممزقا ، وعرفت في تلك اللحظة احساس الجرذ الذي يقع في مصيدة . ودخل الى الغرفة ثلاثة رجال. قال لهم المحقق :

ـ هذا ضيفنا . انه خطر وعنيد .. سنرحب به كالعادة .

ـ اخلع حذاءك .. وجواربك ايضا .

قاطعت في الحال ، وحشرت قدماي بين حزام البندقية الجلدي وبين خشبها الصلد ، وانهالت عصا رفيعة مرنة على باطن القدمين بينما جثم رجلان ، وحاولت خنق صراخي المتوجع بان اضغط باسناني على شفتي السفلى .

المحقق يصيح : اضربوا .. انه لا يتألم .

تشتد الضربات . اصرخ . احاول الافلات .. والمحقق يصيح :

ـ تكلم . انت قتلت الاله . قل من دفعك لقتله .

كسرت اول عصا . استبدلت باخرى ، اللهيب في دمي .. يأكل لحمي .. يا ربي اين انت ؟

تكلم تكلم تكلم .

وانتهى الضرب بعد حين ، وامرني المحقق بالنهوض ، وقال لي وهو يشير الى سطل ماء :

ـ اغمس قدميك .. هيا .. امش .

ومشيت ببطء محاولا ان تكون خطواتي ثابتة ، وكنت اشعر بمهانة عجيبة فكأن رجالا يضاجعون اختي وانا موثق بحبال غليظة وملقى بقربها .

وصرخ المحقق بغيظ :

ـ لم يفدك الضرب .. تعال . تكلم .. قل من امرك بقتل الاله .

انا بريء . لم اقتل . انت كذاب . انا صادق . انا بريء .

وانهمرت الصفعات واللكمات على وجهي وبطني وصدري ، ولم اعد ابصر شيئا سوى ضوء ازرق بشكل خاطف امام عيني .

تمزقت شفتي . سال الدم منها .. ومن انفي ايضا . تورمت عيني. دهمني الم صاعق كأن عظام صدري تحطمت كلها .

وصرخ المحقق في النهاية : خذوه .

واقتادني احد الرجال الى قبو ارضي ، وكان هناك دهليز ضيق معتم ، ينيره مصباح كهربائي ضئيل النور ، وكان على الجانبين ابواب حديدية .. فتح احدها ، ودفعت الى زنزانة صغيرة ، مصباحها الكهربائي متدل من سلك مثبت في السقف ، وكان ثمة سجين واحد مستلق على ظهره ، وما ان شاهدني حتى هب واقفا بينما سارعت الى التمدد على كيس محشو بالقش .. قال السجين :

ـ انت ضيف جديد .

فتأوهت متألما ، وتابع السجين قائلا :

ـ هل عذبوك ؟ الم تتكلم .. ما جريمتك ؟

ـ لم ارتكب اي ذنب ..

ـ كل الذين يأتون الى هنا يتكلمون مثلك في البداية ثم يعترفون بعد تعذيب قليل .. ضرب بالعصي .. قلع اظافر .. كهرباء .. كسر عظام .

ـ اسكت .

ـ انت ضيفي ولا بد انك ستتركني بعد مدة .. اني سجين هنا منذ سنين .. اوف .. نسيت اسماء الشهور والايام ، وسأنسى الكلمات ايضا اذا لم اتكلم باستمرار .. سرقت بضعة الواح من الصفيح . حقق معي مرة واحدة ثم اهملت .. عملي هنا ان انظف الغرف في النهار .. كنت مرة جالسا القرفصاء امسح البلاط فشممت رائحة لحم مشوي . اخذت اشتم كل الالهة .. كنت جائعا للغاية .. وعرفت فيما بعد ان احد الشباب كان مثلك عنيدا .. لم يتكلم .. فاجبروه على القعود على قطعة من الصفيح المحمى الى درجة الاحمرار فاحترقت اليتاه العاريتان ... اني احب اللحم .. هل تحب اللحم المشوي ؟

فغمغمت بسخط : اخرس .

ولعقت بلساني دم شفتي الجريحة ، وتناهى الى مسمعي صوت ارتطام حذاء ثقيل باسمنت الدهليز ، ودار بعد هنيهة مفتاح في ثقب القفل فسارع السجين الى الاستلقاء وتصنع النوم العميق ، وانفتح الباب محدثا صريرا حادا .

ـ انهض .

وتبعت الحارس الى غرفة المحقق الذي استقبلني على الفور قائلا :

ـ اجلس هنا .

واشار بيده الى مقعد خشبي قريب منه ، وتابع المحقق :

ـ لقد اتعبتني .. يجب ان تتكلم .

ـ انا بريء .. لم ارتكب اي ذنب .

قال المحقق :

لا يوجد انسان بلا ذنب .. لا تجبرني على تعذيبك .. وجهك كوجه اخي .. مسكين اخي . لا اريد ان اعذبه . تكلم .. رئيسي يهتم بقضيتك وسألقى متاعب كثيرة اذا لم انجح معك . تكلم .

ـ انا بريء بريء .

ـ ساطرد من عملي اذا لم اجبرك على الاعتراف .. انا متزوج من امرأة احبها ولي طفل لطيف جدا .. ستحبه اذا رأيته .. هل تريد ان تجوع زوجتي وطفلي ؟.

ـ لا اريد ان يجوع احد .

ـ تكلم اذن .. تخلص من العذاب .. قل بانك قتلت الاله اذكر اسم محرضك على قتله .

ـ انا بريء

ـ اسمع نصيحتي سيتعبك فمك المقفل .. كل الذين يسقطون هنا يحبون ان يمثلوا ادوار الابطال ولكنهم بعد ايام ينهارون ويعترفون باكثر مما يطلب منهم ..

تكلم ..

ـ انا بريء .

فبصق المحقق عى الارض بعصبية وقال : لم تسمع نصيحتي .

واقتحم الغرفة من جديد الرجال الثلاثة ، وكانوا متعبين بشكل واضح، والرغبة في النوم تصرخ في اعينهم . قال احدهم لي :

ـ اخلع بنطالك .. واستلق على بطنك .

وقاومت بشراسة غير ان ايدي الرجال كانت اقوى مني، واستطعت وانا ملصق الوجه بالبلاط ان ابصر الانبوب المطاطي الطويل المتصل بصنبور الماء ، وسمعت المحقق يقول :

ـ الن تتكلم ؟

واقشعر جسدي لحظة احسست بالانبوب المطاطي ينزلق بين اليتي ، سرعان ما تدفقت المياه عبر الانبوب مندفعة الى جوفي !

ـ تكلم .

وكان الرجال الثلاثة يربضون فوق جسمي ، وايديهم تمسك بي وتمنعني من التحرك .

ضحك احدهم بهزء . بصق اخر . هات سيجارة . ممنوع التدخين اثناء العمل .

ووقف المحقق قربي ، وركل رأسي بحذائه صارخا :

ـ تكلم .. ستظل المياه تدخل الى معدتك حتى تصل الى جمجمتك .

واغمضت عيني ، ودنا مني بحر مخيف ، وهدرت امواجه بجنون في اذني ، وندت عني آهة عميقة بينما الثقل يضغط على

بطني وصدري بوحشية تتزايد ، وسمعت بغتة المحقق يقول بصوت تناهى الي وكأنه آتٍمن مكان جد ناء :

ـ يكفي هذا الان .. خذوه .

فحملت وارجعت الى الزنزانة ، وألقيت على كيس القش ، واستسلمت للنوم في الحال .

وأفقت في الصباح ، وتطلعت فيما حولي فلم اجد السجين الثرثار فقلت لنفسي : لابد انه ينظف الغرف .

وابتسمت اذ تخيلته رجلا لايموت وعمله تنظيف غرف لا عدد لها ، وعثرت بجانبي على كوب حديدي مليء بالشاي الاسود ورغيف كبير من الخبز الاسمر ، فقلت لنفسي : هذا طعام الصباح .. احضروه أثناء نومي. وابتدأت اقضم الخبز بنهم ، وارتشف بين الفينة والفينة رشفة كبيرة من الشاي البارد ثم نهضت واقتربت بتأن من كوة صغيرة ، وامسكت أصابعي بقضبانها الباردة ، وابصرت رقعة من السماء ذات الزرقة العميقة ، وكانت الشمس ساطعة متوهجة الى حد مذهل فقلت لنفسي بحزن : ياله من نهار .. أين البحر ؟

وحانت مني التفاتة الى الحائط ، فلمحت عليه كلمات كثيرة ، مبعثرة قرأت بعضها بصوت عال جامد : ساعدني يا الله .

وأحسست بألم حاد في قدمي ، فعدت الى فراش القش ، واستلقيت عليه بينما جسدي كله يرتعد من الالم .. جسدي مخلوق غريب مهشم. وسمعت ضجة تدنو من زنزانتي ، فانكمشت مرتجفا بهلع .. سيأخذونني وفتح الباب ، وفوجئت برؤية المحقق .. قال لي بلطف :

ـ صباح الخير ياحسن .

وابتسم وأردف قائلا : انهض .. البس حذاءك .. لا .. لاتخف .

ووجدت صعوبة بالغة في حشر قدمي المتورمتين في الحذاء ، وقال المحقق وهو يقدم لي سيجارة :

ـ ألقي القبض على رجل له سوابق عديدة .. اعترف بانه قاتل الاله وأشعلت السيجارة ، وكنت اقف منحني الظهر ، احملق ببلاهة ..

قال المحقق :

ـ الم تفهم ماقلت ؟.. انت الان حر .

فأطبقت شفتاي على السيجارة بعنف بينما ارتفعت في داخلي اصوات الفرح ثم نفثت دخان سيجارتي وسألت بصوت كئيب :

ـ هل عذب الرجل كثيرا ؟

فضحك المحقق وقال بمرح :

ـ انهم لا يعذبون احدا هنا .. لا تنس هذا لكي تظل بعيدا عن المتاعب .. تستطيع الان الذهاب ... سأرافقك حتى الباب لكي لايعترضك الحراس عند خروجك .

وعند الباب الخارجي ، صافحني المحقق بود وقال :

ـ انت شديد الشبه بأخي .. مسكين مات .. اذهب ... لاترجع الى هنا .

وسرت على مهل ، وعندما بلغت المنعطف تطلعت خلفي فشاهدت البناية الصفراء ، وكانت كحيوان رهيب ، وحاولت ان احث خطاي غير ان قدمي كانتا تؤلمانني وتجبرانني على التباطؤ .. ياله من نهار .. وصدمني ضجيج الشوارع الحار .. محركات السيارات تهدر .. والناس على اسمنت الارصفة .. الجرائد معلقة في واجهات المكتبات الصغيرة ... شبان وفتيات يقفون عند باب السينما .. سيحضرون الحفلة الصباحية .. الشمس .. السماء الزرقاء .. امرأة تضحك .. رجل يمشي برصانة.. صبي هزيل بائع يانصيب لجوج .

واستولى علي خجل شديدعندما رمقتني بفضول فتاة صغيرة ، وشعرت مرة ثانية بان جسدي المهشم مخلوق غريب ، وتذكرت امي وانا امشي بخطى متثاقلة .. كانت تقول لي :

ـ عندما يموت الانسان .. سيمشي على الصراط .

وتخيلت الصراط : انه سلك فولاذي ، رفيع كالشعرة ، وحاد كشفرة السيف ، وهو مشدود فوق هاوية سحيقة .. الانسان الصالح سيعبره بسهولة اما المذنب فسيسقط بعد الخطوة الاولى .

وقلت لنفسي : سأسقط قبل الخطوة الاولى .

وأحسست بأني ذبابة ضائعة تبحث عن سطح صلب تتشبث به ، ولعقت الدم المتجمد على شفتي الجريحة وقلت : سأبحث عن البحر .

وظللت اسير حتى بلغت رقعة كبيرة من الارض ، بني في وسطها منزل واحد ، وقد وقفت على عتبة بابه فتاة وديعة ذكرتني بنجوى فقلت لنفسي : نجوى ميتة .. يجب ان تموت كل النساء .

وسقطت قبل ان ألمس الفتاة في حفرة مليئة بديدان .. راحت تمتص دمي بشراهة ، فصرخت مستغيثا ، وأسرعت الفتاة الى انتشالي من الحفرة ، وضمدت جراحي وقالت بحنو :

ـ انت طفل لاتحب القطط ..

قلت : آه الاحزان تنبت في قلب الغرف المنعزلة المقفلة الابواب وقد يقبل الموت قبل ان يغتسل جلدي بمياه البحر .. أين البحر ؟

قالت الفتاة الوديعة : ربما كان البحر خلف الغابة

وأشارت بيدها الى غابة خضراء قريبة .. فقلت :

ـ البحر البحر البحر .

ولم استطع ان اتفوه بكلمة اخرى ، وهرعت نحو الغابة ، وعندما اصبحت بين اشجارها .. غرقت في دوامة اصوات :

غراب : البحر بعيد .

حمامة بيضاء : البحر جميل .

الاشجار : هل البحر طفل ؟

الازهار : البحر بعيد .

وجرفني دوار قاس ، فارتميت على الارض كحجر هوى من اعلى ، وابتلعتني في الحال عتمة كثيفة ، ورجعت بشكل ما الى زنزانتي ، وانحنيت والتقطت قلم رصاص صغير ملقى على الارضية الوسخة ، وكتبت بيد ثابتة على الحائط : لاتساعدني يا الله .

فاقتادتني قوة مبهمة الى محكمة قاضيها صارم الوجه ، وناسها ملتصقون بذعر بخشب المقاعد .. قال لي القاضي :

ـ تكلم .. اعترف .. قل الصدق .

وشعرت كأن رجلا ما من فولاذ . مختبىء في جوفي وهو الذي بدأ يتأهب للتحدث .. قلت بلهجة هادئة :

ـ أبي كان يعشق امي ، أمي لم تكن تحب ابي ، تزوجته لانه غني . انا لااحب أبي وأمي ...أبي يسكر باستمرار ، ويترنح في مشيته ، وأظن انه كان يحلو له ان يقول على الدوام :

ـ لن ينبت العشب بعد موتي .

وكنت اضحك في السر هازئا من انفه الشديد الاحمرار .

وأمي كانت تحب الوقوف امام المرآة ، وتحب ان ترفع الثوب عن فخذيها حين تقعد .

وكنت صغيرا ليلة سمعت أمي تقول : انه نائم .

فتاة في المدينة

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب — يصدر هذا الشهر

وسمعت أبي يقول : انـا تعبان .
وسمعت أمي تقول : انه نائم .
وسمعت بعد ذلك صوت لهاثهما المحموم .
وأني لاتمنى دائما لو اكون مضطجعا بالقرب من امـرأة تقول لي :
ـ انــه نائم .
فأقول لهـا : انـا تعبـان .
فتقول لي وهي تلتصق بي : انه نائم .
ثم يسمع صوت لهاثي صبي صغير ، يلهث ايضا وهو مختبيء تحـت اللحـــاف .
قـال القاضي :
ـ انت تكذب .. أبوك رجل فقير طيب ، وأمك امرأة مسكينة متعبة.. تكلم تكلم .. لاتسكت .
فتابعت الحديث بصوت مرتجف بعض الشيء :
ـ مها فتاة جميلة ، أجبرتها ذات يوم على دخول منزلي بالقوة . كان جسدها ينضح من اي جسد ، وعندما كنت اسمع تأوهها المتوجع ونحيبها كان يخيل الي بأني سيد العالم والرجل الوحيد الحي على سطح الارض، كانت تبكي فقط في الايام الاولى غير انها اصبحت فيما بعد تفـرح حين يلتقي جسدي بجسدها ، كانت تقبلني بشراهة بفمها الاحمر ، ولـم تهرب ليلة نمت وتركتها بلا وثاق . وأغريتها في الليلة السابعة علـى شرب كمية كبيرة من العرق ، فسكرت للغاية .. انا ايضا كنت سكران .. ولكن الجنون لم يدهمني الا حينما لامست يداي نهديها .. كانا صغيرين بعض الشيء ، دافئين ومكتنزين .. واخذت مها تضحك وتقرصني وتشتمني وتصفعني بيدها الصغيرة . وتدغدغني لكي اضحك ، واعترفت بانهـا تحب شابا يسكن في حارتها ، وقد سمحت له بان يقبل شفتيها ، ويعبث باجزاء من جسدها اثناء تلاقيهما في الخفاء . واجتاحني الغضب حـين قالت : سأتزوجه ، كنت سكران ، فانقضضت عليها ، وطرحتها ارضا ثـم قطعت لحمها الى اجزاء ضئيلة الحجم .. مها لم تتعذب كثيرا لان المدية كانت حادة .. وهاهو دمها يخضبني .. ولن يجف .
فقال القاضي بصوت غاضب :
ـ مها لم تمت .. مها تزوجت غيرك .. تكلم .. تكلم عـن البنت الصغيـرة .
فقلت بتـردد :
ـ كانت بنت الجيران جميلة جدا ، جسدها الاسمر الصغير اغرانـي بعنف فعبثت به ، وثملت بالهلع الصارخ في عينيها السوادين ، وكـادت نشوتي ان تتبدد حين اغمضت عينيها ، وكم سعدت عندمـا اخذت تستغيث مغمغمة بصوت خافت : ياماما . ياماما . ستكبر هذه الصغيرة ولكنهـا لن تنسى يوم قالت لي مهددة :
ـ سأخبر أمـــك .
فقلت لها وانا اضحك : سيذبحك اهلك على حافة بالوعة .
قال القاضي : تكلم تكلم .. لاتسكت .
قلت : احدى النساء في حارتنا ، تشاجرت مع زوجها فشربت سمـا احضره زوجها لقتل البق .. وظل البق حيا .
قال القاضي : تكلم تكلم .
قلت : يوجد في حارتنا قطة مجنونة تأكل اولادها بعد ان تلدهم .. ثم تظل طوال ليال كثيرة تتنقل بين المنازل ، وتموء بوحشة ضارية مناديـة صغارهـــا .
قال القاضي : تكلم تكلم .
قلت : أمي بكت يوم مرضت .
فصرخ القاضي بصرامة : انت لاتحب امـك .
صحت بحرقة : انا احب أمي .. احب ابي .. احب كل النـــاس واللـــــه .
فقهقه القاضي طويلا ثم قال ببرود :
ـ خـــذوه الـى النار .
وفتحت عيني بهلع فاذا بالشمس ترمي لظاها على جسمي ووجهـي ، وانا ملقى على الارض ، فنهضت وغادرت الغابة .. تتبعني اصواتها :
ـ بعيد البحـر .. بعيد .
فقلت لنفسي : لن اموت وساظل حيا كارض خصبة اذا عشـــرت علـى البحـر .
وكانت امامي بلدة صغيرة ، اسرعت اليها ، وتجولت في طرقاتها ، وفجأة ابصرت صديقا قديما ، فاستولت علي الدهشة ، وقلت له :
ـ ما الذي اتى بـك الى هنا ؟
فضحك وقال متسائلا : ماالذي اتى بك الى هنا ؟
وسرنا معا ثم دخلنا الى خمارة ، ورحنا نحتسي العرق الممتزج بالماء..
قال صديقي بكآبـه :
ـ لم يبق في العالم ابتسامة .
قت لـه برصانة :
ـ اسمع ، هذا مايحدث.. الحيوان ينتصر .. جسد الانسان يخضع لتحول غامض ، وسيصبح بعد حين مخلوقا عجيبا .. قلبه جرذ .. عيناه عنكبوتان .. مخه عقرب .. اصابعه ديدان .. دمه صديد .. فمه صرصار ميت .. وستختفي كل الكلمات وسيكون الصراخ الوحشي .. الصوت الوحيد المتردد في العالم .
فبلل الدمع وجه صديقي وقال :
ـ لا ابتسامة .. لا ابتسامة لن اصرخ .
قلت : مياه البحر ستغسل الجسد .. شمس البحر ستصرع الحيوان .. وسيفقد الانسان غباره ويصبح كما يشتهي.. طفلا .. شـــاعرا .. قديسا .. بطلا .
قال صديقي : اين البحر..الم تجد البحر ؟
قلت : لن يموت من يحتضنه البحر .
وودعت صديقي ، وخرجت من الخمارة ، وكانت طرقات البلدة متعرجة

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

لجنة التأليف المدرسي ـ بيـروت

تقـدم سلسلة

مراحل القراءة

احدث سلسلة لتعليم اللغة العربية في الصفـــوف الابتدائية وفق افضل الاساليب التربوية . وهي تتألف من جزءين لروضة الاطفال وخمسة اجزاء لطـــلاب الصفوف الابتدائية ، وتمتاز بحسن التدرج ، وبراعـة الاختيار ، وجمال الصورة ، وروعة الاخراج .

تطلب من جميع المكتبـات في العالـم العربي

رحيل الى البحر !

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

ضيقة طويلة ، ودنت مني امراة ، وسألتني :

ـ هل تملك نقودا ؟

قلت لها : لماذا تسالين ؟

ابتسمت باغراء وقالت : الست جميلة ؟

فتاملتها مليا ، كانت عيناها زرقاوين ، فامتلكني حنين عارم الى البحر ، وقلت :

ـ انت جميلة .

قالت : سآخذك الى بيتي اذا كنت تملك نقودا ؟

ورافقتها الى بيتها ، وهناك قالت بثقة :

ـ انا جميلة .

قلت : انت كالبحر .. لحمك كرمل الشاطىء .

قالت : ستسمع بعد قليل صرخة الامواج .

فضممتها الي بشراسة ، وذاق فمي ملح لحمها بينما هدير الموج يصخب في عروقي .

قلت لها : البحر في دمي .

قالت وهي تسترخي في استلقائها :

ـ البحر في جسدي .

واشتد التصاقي بها وانا ثمل بفرحي النامي فلقد عثرت في النهاية على البحر ، واستيقظ قطيع ذئاب ، وارتمى على اللحم الابيض ، وتمرغ في الرطوبة والندى .

همست المراة : آه

وشيئا فشيئا تلاشت الذئاب ، ونأى عني البحر ، فتلفت حوا مضطربا غير ان عيني المراة الزرقاوين أعادتا الي البحر .

قلت وانا أعانقها بحنان :

ـ لن اتركك .. ساعيش معك .

قالت : هل انت غني ؟

قلت : لست غنيا .

قالت : ألا تريد ان تحيا سعيدا ؟

قلت : اريد ان احيا سعيدا .

قالت : لن تحيا سعيدا اذا لم تكن غنيا .

قلت : ساعيش معك حتى موتي .

قالت هل سنظل نحيا في هذا البيت المتهدم ... انه قبر .

قلت : ساعترف دون خجل : انا احبك .

قالت بمرارة : الحب ليس خبزا .

قلت وانا اقبل شعرها :

ـ سيكون لنا بيت جميل له حديقة .. سنغرس فيها شجرة ليمون .. أنا أحب رائحة اوراق الليمون .. اتحبينها ؟.. سنزرع البنفسج .. وسينمو العشب الاخضر .. سيكون لنا طفل سيناديك : ماما .. وحين يفزع من شيء سيهرع الى احضانك محتميا بك .

فبكت المراة بصوت خفيض وقالت : انا امراة رديئة .

وتابعت قائلا بحرارة :

ساشتغل .. ساجد عملا ما .. سيكون لنا بيت صغير ، بيت وديع .. أثاثه أنيق .. وسنملك مذياعا وفونوغرافا واسطوانات كثيرة .. سنصغي الى الموسيقى في الظلام ونحن متلاصقان وطفلنا نائم .. سنتحدى معا كآبة العالم .. لن نهزم .. لن ننحني رؤوسنا .

فاخفت المراة وجهها في صدري وقالت :

ـ ساعيش معك .

قلت وانا المس شعرها الناعم الاسود بحنو : اسمي حسن.

قالت بعذوبة : اسمي ليلى .

ـ ٢ ـ

تمنيت لو بموت اهل البلدة ، فالنساء يرقبنني بفضول ، ويبتسمن بخبث ، والرجال يضحكون بهزء ويتهامسون ثم يبصقون بازدراء . ولقد اعترض طريقي ذات يوم شاب سكران ، وقال لي :

ـ انت زوج ليلى .. اشكرني اذا كانت حبلى .. لا .. لا .. اشكر ايضا رجال البلدة .

وطرق بابي في ليلة من الليالي ، ولم اكد افتح الباب حتى هجم علي اربعة رجال سكارى ، وقيدوني بحبل غليظ ثم حملوني الى الغرفة ، ولم استطع ان اغمض عيني ، وشاهدت ليلى تقاوم دون جدوى ثم تسقط تحت اجسادهم ، ولم استطع ان اغمض عيني ، وخيل الي باني لمحت نشوة عجيبة على وجه ليلى . وسمعت نحيبها حينما ذهبوا وانصفق باب البيت خلفهم . قلت بصوت ذليل مرتعش : ليلى ليلى .

فدنت مني ، وحررتني من الحبل ، ولم أتفوه بأية كلمة ، وظلت ليلى تبكي حتى تعبت ونامت ، وعندئذ تركت البيت ، وغادرت البلدة .

فليمت اهل البلدة جميعا . فلتكن زوجاتهم قطعان ماعز . ولتخرج الجرذان من مخابئها تحت الارض ولتاكل الاطفال في مهودهم. فلتكن بلدة بلا اطفال حتى الابد .. سيبدها الحيوان .. وها هو الليل يهبط فوق الارض كسقف من الوطاويط وانا بلا امراة .. لا بيت لي .. وطفلي الذي انتظرته بكثير من الحنين والفرح .. تركته وانطلقت كريح غاضبة .

سياتي الغد .. التراب جلد الارض الخشن .. سيضمحل التراب .. الارض فولاذ بارد . المحاريث يائسة محطمة . لا سنابل . لا شجر . الانهار سوداء . جراح بلا دماء . المنازل مقابر . الملوك يمشون بكبرياء بلا رؤوس .. ورؤوسهم تقدم في اطباق للشعب الجائع . فمك يا حبيبتي ليس خبزا . النساء الهرمات يحتسين القهوة ، ويثرثرن عن اطفال لن يأتوا ، والرجال في الطرقات شاحبة وجوههم ، والخريف جثته في اعينهم .. لقد شنقوا القمر .. ونهر من الاغنيات يناى عن المدن كسحابة لها الاف الاجنحة .. الجراد يمحو اخضرار الارض . الامهات يخنقن اطفالهن ، ويرمين جثثهم الى كلاب تنتظر بأفواه مفتوحة تتدلى منها السنة طويلة مرتجفة . الشبان يذبحون آباءهم ويسكرون وهم قاعدون على اسمنت الارصفة . الذباب يتسلل الى أفواه الشبان ثم يتسرب الى داخل الرأس وهناك سيطن حتى يقبل الموت . حل موعد العشاء . العائلة السعيدة اكلت طفلا مسلوقا ـ كان طفلا من اطفالها ـ ثم غسلت أفواهها ، واصغت الى أغنية .

آه يا ليلى .. سياتي الغد وسينتقم لنا .

وابصرت كهلا يتوكأ على عصا ، وكان ظهره منحنيا ، وخطواته متمهلة .. قال لي :

ـ انا بائع متجول .

قلت : ماذا تبيع ؟

قال : ابيع كلمات .. أتشتري ؟

قلت : نقودي قليلة .

قال : يحلو لي في هذه الليلة ان ابدد كلماتي بلا ثمن .

وسعل عدة مرات ثم قال :

ـ لا تحترم احدا . الشر لا يهزم . الصدق يجلب المتاعب . لا تدفن ميتا .

فقلت له مقاطعا : انا ابحث عن البحر .

فلم يابه بي ، وتابع كلامه قائلا :

ـ السعادة وهم والفرح لا يعيش طويلا .

قلت : البحر امراة حنون .

قال : الهزيمة تنتظر البشر

قلت : الهزيمة تنتظر البشر .

قال : سيموت القمر ستموت النجوم ستموت الشمس سيغرق العالم في الظلام .

وصمت الكهل ، ثم بدأ يغني . كان صوته خشنا اجش كئيبا كان تعاسة البشر قد تجمعت في صوته . نبت ورد اسود في قلبي . صوته خبز مبلل بالدموع .. قلت :

ـ سيغنى لحمي اذا لم اجد البحر .

فكف الكهل عن الغناء ، وقال : اقتحم الصحراء .

فاحنيت رأسي صامتا ، وسرت بجانبه ، وحين وصلنا الى احدى القرى افترقنا عن بعض دون كلمة ولكني قلت لنفسي :

ـ سأرى الكهل قريبا والمسامير في لحمه .

وكانت العتمة منتشرة في القرية ، وكان ثمة كوخ واحد ينبعث من شباكه النور ، فاتجهت اليه ، وطرقت الباب ، وانتظرت طويلا دون ان اسمع اي حركة ، وبغتة فتح الباب ، ووقف قبالتي رجل له وجه بشع ، وتطل من عينيه نظرة باردة مظلمة .. قال بجفاء :

ـ ماذا تريد ؟

قلت : انا رجل غريب .

وعندما غدوت داخل الكوخ .. سألني الرجل البشع :

ـ أانت جائع ؟

قلت على الفور : لا .. لست جائعا .

قال : اشرب من نبيذي .

ورفعت الكأس الزجاجية المليئة بالنبيذ ، وادنيتها من عيني فبدا قرمزيا وكأنه دم مسفوح تحت ضوء الشمس ، وتجرعت رشفة ضئيلة ثم قلت :

ـ يا له من نبيذ .

فقهقه الرجل بخشونة بعثت في اوصالي ذعرا خفيا ، وقال :

ـ كنت احب امرأة .

ـ انا كنت احب امرأة

ـ ولم احس في اية لحظة بانها لي .

ـ ألم تكن تحبك ؟

ـ كانت تحبني بجنون .

فقلت : يا لها من امرأة .

فقهقه الرجل البشع مرة ثانية ، وقال مقلدا لهجتي :

ـ يا لها من امرأة .. احسست فقط بانها لي عندما صار دمها نبيذي .

فجرعت جرعة كبيرة من كأس النبيذ وقلت :

ـ اوه يا له من نبيذ .

قال الرجل : انت من ثلج .

قلت : كنت اعيش في مدينة كان الثلج يتساقط فيها احيانا فيغطي طرقاتها واسطح مبانيها ، وكان الناس عندئذ ينسون وقارهم فيتصرفون كأطفال .

قال الرجل : انا اكره الاطفال .

قلت : طفلي سيبصر النور بعد شهر ، وستأتي بضعة اشهر اخرى وسيحاول طفلي ان يقول : ماما .. بابا .

قال الرجل : الاطفال يبولون في كل مكان ويبكون كالكلاب الصغيرة

قلت له : انت كنت طفلا .

قال : المرأة تعطي الرجل الجنون والاطفال .. اتعرف ما الذي سيحدث في وقت قريب ؟.. ستصير النساء عقيمات .. وسيتناقص البشر تدريجيا حتى يتلاشوا نهائيا .. وحينئذ لن يبقى سواي .

قلت : انت ايضا ستموت .

قال : لن اموت .. سأمشي وحيدا في المدن المقفرة .

واتقدت نار شرسة في عينيه ، فسلذت بالصمت ، وتصنعت التثاؤب ، فقال الرجل البشع :

ـ ادخل الان .. توجد مدينة كبيرة بعد مسير قليل

فسألته وانا اتمطى :

ـ اتعرف اين البحر ؟

ـ اعرف فقط كوخي .. البحر ربما كان في المدينة الكبيرة .

وقصدت المدينة الكبيرة وانا متلهف لرؤيتها ، وقد وجدتها ذات شوارع عريضة ، تنتصب على جانبيها مبان حجرية ضخمة ، احسست وانا ارمقها بضآلة عجيبة .

واستأجرت غرفة في احد البيوت ، واشتغلت في معمل كبير .. آلاته مخلوقات ذات اصوات غاضبة ابدا . وشعرت منذ البداية بحب جارف لها .. كنت ألمسها بحنان .. كانت باردة ناعمة مصقولة .. وكانت رائحة الزيت والحديد تخدرني وتحملني الى شاطىء بحر غامض .

وفي يوم من الايام ، التهمت احدى الآلات اصبع عامل ، فامتلأ قلبي حزنا وشفقة ولكن بقية العمال زمجروا غاضبين .. فاعتذر صاحب المعمل ، واحضر في نفس اليوم خروفا ذبح عند اقدام الآلة ، وعندما كان الدم الاحمر يتدفق من عنق الخروف ، سرى في جسدي الارتياح ، واستيقظ شوقي للبحر .. لن احب سوى البحر .

واشتريت في المساء وردة حمراء .. قالت لي :

ـ أمي تركتها في السهول .

قلت لها : الورد يباع .

قالت : نهارك تبيعه .

قلت : البحر وحده لا سيد له ولا احد يستطيع شراءه .

وقضيت بعض ساعات الليل مع صديق من عمال المعمل ، قال لي:

ـ ماتت اختي ماتت .

قلت : انا لي اب وام فقط .

قال : ماتت .

قلت : لا تفتش عن النجوم في الطين .

قال : ماتت .

قلت : حطم الساعات كلها .

قال : لا ام لي .

قلت : لاتفتش عن النجوم في الطين .

قال : ماتت .

قلت : انتظر .. سيقبل البحر .

قال بدهشة : البحر ؟!

قلت : البحر طفل في ساعات الصفاء .. أوه .. ما أروعه حين يغضب.

قال : لا اعرف ما البحر ؟

قلت : البحر ليس آلة ولا بناية ولا سيارة ولا اصبعا مقطوعا ولا خروفا دمه احمر .

قال : خذني الى البحر .

قلت : اين البحر ؟.. لابد ان اختك صارت طيرا ابيض يحوم فوق مياهه الزرقاء ..

وشاهدت اثناء عودتي الى غرفتي رجلا سكران يترنح بصورة مضحكة، فخطر لي ان اقول له متسائلا :

ـ اين البحر ؟

فتجشأ السكران بينما وجهه يكاد ان يلتصق بوجهي ، وقال :

ـ في اخر الشارع خمارة اذهب اليها .

وذهبت الى الخمارة ، واخذت اجرع العرق بشراهة ثم دفعت ثمن ماشربت ، وخرجت الى الشارع ، ولم اكد اسير بضع خطى حتى سقطت منهارا على الرصيف ، واكتشفت وقتئذ بحرا عجيبا بينما ظهري ملتصق ببلاطات الرصيف الباردة ، وكانت فوق وجهي السماء السوداء المرصعة بالنجوم الكثيرة العدد .

رأيت أمي تبكي بعنف وتقول : لاترحل ياحسن .

وتبكي وتقول : عد الي .

وتبكي وتقول : ياولدي ياولدي .

وأبي يبصق ويقول : لن ينبت العشب بعد موتي .

وتنتحب مها حبيبتي التي تزوجت غيري وتقول :

ـ حسن .. أهلي أرغموني على الزواج .. انا احبك .. احبك .

اقبلت عربات الحزن ، الغابات النارية في عروقي تحرق الاجنحة . انا في قاع الارض رماح الليل الغامض مغرسة في قلبي .

مها تقول : أحبـك .

وأمي تبكي وابي يقول : لن ينبت العشب بعد موتي .

وانحنى فوقي في تلك اللحظة حارس ليلي ، وقال :

ـ انهض ، سأعاونك على المسير .. هل بيتك بعيد ؟

وأوصلني الحارس الى غرفتي ، ولم اشكره ، ووقفت امام المرآة ، وتطلعت .. كان وجهي اصفر ، وفي العينين نظرة سوداء .. شعـرت في البدء باني لست صاحبها ، وشيئا فشيئا احسست بحب لها ،وأجلت نظراتي فيما حولي فاذا بصرصار على الحائط ، فأمسكته ، وكشفت عـن ذراعي ، وتركته يدب على لحمي ، واجتاحتني قشعريرة حادة مؤلمة وايقنت باني مازلت حيا ، والبحر ليس بعيدا .. بحر مياهه في بدء النهار خضراء ثم تصير زرقاء ، وأمواجه ذات زبد ابيض يضرب صخور الشاطـىء دون ملل .

وفي الايام التالية ، امتنعت عن الذهاب الى المعمل ، وأخذت اقضي اكثر اوقاتي في مقهى كبير قابع على جانب شارع رئيسي ، وكان مقهى يؤمه رواد من مختلف الطبقات ، وهم لايتبدلون الا في ايام نادرة ، وهناك عرفت رجلا وجهه قاس وشعره مشعث والسيجارة لاتفارق فمه ، وكـان يعشق فتاة لاتعرفه ، ويحلو له ان يتحدث عن اشعاره التي يزمع نشرهـا في كتاب .. قلت له مـرة :

ـ الا تحرق اشعارك اذا نلت حبيبتك ؟

وهناك في المقهى تعرفت على رجل اخر ، ضخم الجثة ، له ذقن سوداء، تضفي على وجهه مسحة شيطانية ، وكانت مهنته قراءة الكف ، فهـو يعرف الماضي والحاضر والمستقبل ولكنه كما اعترف لي كان يجد بعض الصعوبة في العثور على خبزه اليومي .. قال لي :

ـ البشر قانعون .. انهم يعيشون بطريقة ما ولا يهتمون بحياتهم .

قلت : ماذا تريد منهم ان يفعلوا ؟

قال : ان يعشقوا الشمس .

قلت : عشق البحر افضل .

قال : انا احب الشمس لانها لن تطرق بابي في اخر الشهر مطالبة بثمن نورهـا .

وكان في المقهى عدد من المقامرين ، احدهم رأسه اصلع ، ويغني بمرح حين يبدأ بالربح .. لذلك فقد لقبه رفاقه بالعندليب .

قلت له : بماذا تشعر عندما تخسر ؟

قال : اشعر باني مرحاض وسخ .

قلت : وبماذا تحس وقت تربـح ؟

قال : أحس باني رجل انيق يبول بكبرياء في مرحاض وسخ .

وكان هناك ايضا عدد من الشبان الذين مازالوا طلابا ، وكانوا يحبون الضحك والهزء بكل الاشياء ، وكان اكثرهم مرحا (الآله) ـ هكـذا ينادونه ـ كان يقول بان جده بائع صحف اسمه : اسكندر ذو القرنين ، اما جدته فهي امرأة بدينة جاهلة تدعى : كليوبتره ، وكان يقول :

ـ من شتمني ثلاث مرات دخل جنتي وعلى رأسه تاج وسأهبه مئـة امـرأة .

كان مقهى عجيبا .. أنساني البحر ، وجعلني اهتم به واغرق في حياته ثم سئمته وتعاظم شوقي الى البحر ، فخرجت اتنزه في البساتين المحيطة بالمدينـة .

قعدت تحت اغصان شجرة رمان .. قالت لي بعد صمت قليل :

ـ بالامس نام تحت اغصاني عاشقان .

قلت : شاب وفتـاة ؟

قالت : شاب يحب الماضي وفتاة تحب المستقبل .

قلت : هل تبادلا القبل ؟

قالت شجرة الرمان : كانت شفتا الفتاة وهما مضمومتان تنتظران .. كأنهما قطعة من قلب رمـان .

قلت : هل باح الشاب بحبه ؟

قالت شجرة الرمان : الشاب مرتبك خجول ، وعندما قـال للفتاة أحبك .. صار وجهه كفمها .

قلت : انـا بـلا حـب.

قالت : ستموت على مهل .

قلت : لن اموت قبل ان اقابل البحر .

قالت : ستموت مادمت بلا حب .. سيأكلك وحش مختبىء تحـت جلـدك .

قلت : أريد ان اضحك مرة واحدة قبل موتي .

قالت : أضحـك

قلت : ياقاسية ياشجرة الرمان ياقاسية .

فصمتت شجرة الرمان بينما ابتدأت تحدثني زهرة برية بيضاء ، وقالـت :

ـ غردت البلابل لـي .

قلت : البلابل لاتحب البحـر .

قالت : البلابل تحبني .

قلت : البلابل تحب غناءها فقط .

قالت : انا احب السماء الزرقاء .

قلت : الغربـان تحب السماء .

قالت : ستموت الغربـان .

فنهضت ، ومشيت قليلا مستنشقا الهواء الذي كان يهب رطبا نديـا ممتزجا بعطر مبهم .. نادتني ساقية صغيرة :

ـ حسن حسن .

قلت : مياهـك ليست مالحـة .

قالت : مياهي مـن الغيوم .

قلت : ليتـك بنت بحـر .

وقال ظلي الاسود المرتمي امامي :

ـ سيكون البكاء بلا دموع .

قال التراب : ليت المطر ينهمر .

قلت : كنت عاشقا تحملني عربات الحزن الى مرافيء نائية .

قال التراب : ركضت فوقي الخيول كأعصار غاضب ، ولمعت السيوف في ضوء الصباح ، وارتويت من الدم واعطيت ازهارا حمراء .

فتهالكت على الارض ، وكلي شوق لسماع أغنية كآبة تبوح بها اوتار عـــود .

قال التراب : الشمس الليل القمر النهار النجوم .. كلهم يحبونني.. وانا احـب المطـــر .

ولعقت شفتي بلساني بينما تابع التراب قائلا :

ـ كنت في قديم الزمان فتاة جميلة ، كان جسدها يحب احد الشباب وكانت تعرف ان اخاها مصمم على قتلها ولكنها لم تتردد او تعارض ورافقته الى ارض بعيدة عن المدينة ، وعندما كانت السكين المرتجفة تدنو منها .. لمحت الفتاة في عيني اخيها رغبة في البكاء وذلا وشهوة ، فعرفت سـره الدفين وصاحت :

ـ اخـي اخي ..

أوه لقد اعطيت البشر قمحا وأزهارا واشجارا وعشبا اخضر .

قلت للتراب : آلاف الليالي تعاقبت دون ان اعثر على البحر .

وعدت ادراجي الى المدينة ، واتجهت نحو غرفتي الجديدة التـــي استأجرتها بدلا من الغرفة القديمة الاولى التي تركتها لاني شعرت بانـي مهدد بخطر هائل ، فقد كنت املك الف قناع .. لذلك فقد ابدى اهـل البيت اعجابهم بي ، فانا ـ كما قالوا ـ خجول مهذب واخلاقي فاضلة ، وطلبت مني زوجة صاحب البيت ان اساعد ولدها في دروسه .. اريـد خدمة ياجارتي .. وكان ولدها فتى في الرابعة عشرة من عمره ، شديد الجمال ولكن اخته كانت تفوقه في الجمال ، وتكبره بعدة اعوام .

كنت اشعر بان ذلك الفتى خاضع لي خضوعا عجيبا ، ولقد ابتدأت اسأله عن اخته ، كانت أسئلتي في البداية عادية ثم تبدلت فاضحت وقحـــة :

ـ هل شاهدت اختك بلا ثياب ؟ هل شاهدت فخذيها ؟ هل لمستهما ؟ هل هما ناعمان ؟ هل نهداها كبيران ؟ هل شاهدت اكثر من ذلك ؟

وكان يجيب على اسئلتي بارتباك ، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى لاحظت انه قد بدأ يجد لذة في مراقبة اخته ، وكان يسرد علي مفاتنها بحماس . وفي يوم ما ، كان الاخ والاخت وحيدين في البيت ، فامسكت بالاخت وحاولت تقبيلها فمانعت وقاومت فقلت لها :

ـ هل انت خجلة من اخيك ؟ انه لايعارض ولن يخبر احدا .

وادرت وجهي اليه ، فوجدته شاحبا ، يصرخ في عينيه حقد ضار بعث في جسدي خوفا مبهما .. دفعني لان انتقل الى غرفة جديدة في اليـوم التالـــي .

وقفت عند مكتبة صغيرة ، واشتريت جريدة .. اهتممت بان تكـــون صفحاتها كثيرة العدد . وعدت الى غرفتي الجديدة .. وهناك استلقيت على ظهري ، وطفقت اقرأ الجريدة حتى انتهيت منها ثم مزقتها ورميتها من النافذة المطلة على الشارع ثم تحولت قليلا في جنبات غرفتي ، وكانت الشمس خلف زجاج النافذة عصفورا اصفر حائرا اضاع عشه .. اوه .. الجراد ينبت في الدم . العالم كهف مظلم . الماء بعيد . حاولت ان اغني لكن كآبة قاهرة اسكتتني .. اقبل الليـــل سريعا ، وانهمرت الامطـار فانحدرت الى الشوارع ، وكان المطر مفعما بعذوبة نادرة ، وكانت المدينة امرأة أغمضت عينيها منتشية بالغناء الـذي ترددد الامطار .. امـرأة جسدها الناضج عار ويحب ان يحيا وحيدا .

قلت لنفسي : ليت دمي سم افعى .

ورأيت رجلا يمشي ببطء غير عابيء بالمطر الذي يبلل ثيابـــه ، وكان يبكي بحرارة ، فاقتربت منه وسألته :

ـ ما بك ؟

فخلع معطفه فاذا بجسده مثخن بجراح طويلة عميقة ، تطل منهـا رؤوس فئران ضئيلة الحجم ، فابتعدت عنه مهرولا تحت المطـر بينمـا المصابيح الصفراء تتناثر فوقي بفوضى .

ووقفت عند باب منزل نساؤه مومسات ، وقلت لنفسي :

ـ يجب أن أختبيء .

ودلفت الى الداخل ، واخترت امرأة ذات وجه اسمر بشـوش.

قالت لي اخلع ملابسك بسرعة .

فظللت متجمدا في مكاني .. قالت : أانت خجل ؟

فضحكت بوقاحة وقلت : من لا يخجل في غرفتك ؟

قالت : هل أتيت من السماء ؟

قلت : كيف عرفت ؟ من أخبرك ؟ لقد اتيت من السماء .. لـم أكن وحدي . كان معي صديق .. وكانت شهوة البشر في عروقنا .

قالت المومس : أين اجنحتك ؟

قلت : فقدت اجنحتي .. سرقتها المـدن .. البحر وحـده سيعطيني اجنحة .

قالت : ربما رجعت اليك اجنحتك لو قبلتني .

وعندما انزلقت شفتها بين شفتي ، احسست على الفور بطعم غريب في فمي ، فابعدتها قليلا عني ، وحملقت في وجهها .. لم يكـن جميلا .. ولكن في عينيها ابتسامة ، بدت لي وكأنها نار نائية تـلوح للمسافر الضائع في صحراء شاسعة ، فاحتضنت المومس بين ذراعـي بحركة مفاجئة يائسة ، وكانت الامطار تنهمر بغزارة خارج الغرفـة ، وظلت تنهمر اثر خروجي من غرفة المومس . ووقفت تحت المطر مدة طويلة ثم قلت لنفسي : لا فائدة .. البحر بعيد والاجنحة احترقـت مرة ثانية .

وأغمضت عيني هنيهة ، وكان العالم عندئذ غامضا مرتجفـا ، ينبض قلبه بلهفة عارمة .. انه ينتظر مقدم شيء مجهول .

وتوجهت مسرعا نحو غـرفتي ، ولم اضيء النور ، وتمـددت باسترخاء بينما ابتدأت الموسيقى تنساب من المذياع .

تدفقت الموسيقى ، وامتزجت باصوات المطر المتساقط خـارج الغرفة .. ثمة مزمار حزين يئن .. والجوقة تعزف لحنا ميت العذوبة.. والمزمار الحزين يئن وينوح .. وأنا مطبق الجفنين .. احاول ان اتذكر ماضيا نائيا .. اسمي حسن .. لم اكن في القديم أملك هذا الاسم.. كانت حياتي بيضاء ، وكان لا بد من لحظة سوداء مدمرة .. وانبثقت اللحظة السوداء .. لا لا .. لـن انحني لكومة التراب .. وتلاشـى العالم الابيض ، وانحدرت الى عالم جديد .. القيت طفلا .. اعطيت اما وأبا .. حاولا ان يجعلاني اعيش بطريقة بلهاء ، ولكني كنت اللحظة السوداء المتجسدة في مخلوق من لحم ودم .

الموسيقى فقدت غضبها وكآبتها ، وغـدت رقصة فرح ثمل . ضحكت ببلاهة . اعجبتني ضحكتي . ضحكت مرة ثانية . نهضت . أضأت المصباح الكهربائي . وقفت امام المرآة ، وتطلعت الى وجهـي فصدمتني في البدء نظرة عيني الباردة المظلمة ولكن سرعان ما شعـرت بأنها منبثقة من صميمي .. انا النظرة الباردة المظلمة .. البحـر بعيد .. وأنا متعب .. سأعود الى مدينتي .

ـ ٣ ـ

ها هي مدينتي كمتسولة نائمة . وقد التقيت قبل قليل برجـل مذعور ، انباني بان مـدينتي غزاها رجال غرباء قساة ، ونصحني بالابتعاد عنها ولكن حنيني اليها كان اقوى من اي رعب .

وها هي مدينتي كمتسولة نائمة . ميت ربيع حقولها الاخضر . تطوقها من كل جانب الاسوار الحجرية ، وارتعدت وانا ادنو من احـد ابوابها ، واعترض طريقي رجال قاتمة وجوههم .. قلت لهم :

ـ اريد الدخول .. انا من ابناء المدينة .. كنت مسافرا .

قالوا لي بسخرية : اذن انت من ابناء المدينة .

ولم يطلقوا سراحي الا بعد ايام عديدة ، وقد حولتني ايديهـم الغظة الى مخلوق .. قد يشتهي امـــرأة ما .. وقد يقبلها ويلمس جسدها بنهم ولكنه سيضطر الى تركها بعد حين وهو يرتجف حسرة .

كانت المنازل صامتة . والشـــوارع شبه مقفرة ، تدق ارضهـا احذية الرجال الغرباء . وكان باب البيت الذي ولدت فيه مواربا .. دخلت .. امي تبكي .. لم تفرح .. لم تطلق الزغاريد .. سألتها :

ـ اين ابي ؟

قالت بصوت متهدج : سرق رغيفا .. قطعوا ذراعه .. ســـرق رغيفا اخر .. قطعوا ذراعه الاخرى .. ثم عاد ذات مساء لحما ممزقا بلا رأس .

أين يا امي شعر ابي الابيض ؟ اين شاربه الكث المتهدل ؟ ايـن عيناه الصارمتان الوديعتان ؟ ضحكته كانت كالصباح .. أيـــن غضبه وفرحـــه ؟

سأقف عند مفترق الشوارع ، وأمد كفي طالبا من المارة بضعـة قروش ، سأفصل رأسي عن جسدي واعطيه لجثة أبي .

نامي يا امي .

سأبكي بحرارة اذا مت ولكنني سأفرح ايضا لاني سأرث سريرك العريض المريح .

قالت امي : الغرباء يأكلون خبزنا كله .

قلت : نامي يا أمي نامي .

قالت : رجالنا عبيد .

قلت : نامي .

قالت : البارحة قتل مئة رجل .. مئة رجل .. غابة خضـراء احرقها الغرباء .

قلت : نامي يا امي .

قالت : لن انام .. شمس النهار ما تزال مشرقة .

قلت : نامي نامي .

ولذت بالصمت فترة طويلة من الزمن . عذبني الجوع . قلـت لامي بخجل وذل ـ انا جائع .

قالت : انا لم أذق طعاما منذ ايام .

فخرجت الى الشوارع ، وقلت لنفسي : يجب ان اجد اي عمل.

وكانت المعامل والدكاكين قد اصبحت كلها ملكا للرجال الغرباء .

وقفت امام باب معمل ، وقلت :

ـ اريد ان اشتغل .

فرمقني صاحب المعمل الذي كان رجلا غريبا ، وقال :

ـ انت هزيل .

قلت وانا اشعر بأني كلب ينبح طالبا عظمة يلعقها :

ـ انا قوي .

قال : اذهب .. أنت هزيل ووقح .. اذهب ومت .

فلم أيأس ، وظلت أذرع الطرقات باحثا عن عمل . عثرت عـلى شركة تطلب موظفا .. قلت لمديرها :

ـ انا اعتقد بأني أملك الكفاءة اللازمة للعمل في شركتكم .

فأجاب بازدراء : لا عمل عندنا .. اذهب .

وعندما خرجت من غرفته ، قال لي احد الموظفين ناصحا :

ـ اذا اردت ان تشتغل .. فليكن حذاؤك لامعا وملابسك أنيقـة ووجهك حليقا .. ابتسم باستمرار .. انحن كثيرا .. ردد بخضوع : أمرك سيدي .. أمرك سيدي .

فقلت له : اذهب مع نصائحك الى الجحيم .

واستأنفت الطواف في الشوارع .. أوه .. مدينتي كانت فـي الايام القديمة كزهرة من ازهار الياسمين المفروس بكثرة في باحـات البيوت ولكنها أضاعت وجهها الابيض منذ أن وطأتها احذية الرجـال الغربـاء .

الاطفال لا يضحكون لا يلعبون في الحارات لا يتراشقون بالحجارة. كل النساء عاهرات . لم تبق عذراء . الرجال يمشون بتثاقل ذليل رؤوسهم منكسة ووجوههـــم صفراء وكثيرون بترت ألسنتهم لانهـم شتموا الغرباء .

نظرت الي احدى النساء ، وضحكت مبتهجة . رمقتها باستغراب.

قالت : ألم تعرفني ؟ انا مها .

وكانت مها فتاة جميلة ولكن المرأة الواقفة امامي ذات وجـــه أصفر متجعد وفمها بلا اسنان .

قلت بذعر : مها .. ما الذي حدث ؟

قالت : الرجال الغرباء قتلوا زوجي ثم نبذوني حينما فقـــدت جمالي .. أما زلت تحبني ؟

فحملقت في وجهها ثم ابتعدت مشمئزا دونما كلمة ، وتـوقفت بعد قليل حينما أبصرت رجلا هرما يقاتل الرجال الغرباء الذين كانوا يريدون سلبه ابنته الصبية ، وكان الرجل الهرم شديد الشبه بأبي ، ووجدت نفسي أقف بجانبه ، وأقاتل بضراوة ، ولم تمض سوى لحظات حتى سددت الينا البنادق ، وغرقت في طوفان ناري ، ولم يكن وراء ظهري اي حائط ، وعندما سقطت منهارا على الارض الصلدة شـاهدت سحبا من الجراد تمتلك السماء الـــزرقاء ، وتحجب وجه الشمس الاصفـــر .

ـ ٤ ـ

هل الشمس تشرق كل صباح ؟.. انا بائس يا امي .. هـــل قدماك تؤلمانك ؟.. اغمسيهما في الماء الساخن قبل النوم .. هـــل تضحكين احيانا يا امي ؟.. اضحكي كثيرا .. انا لا استطيع الضحك او البكاء لان الديدان والجرذان أكلت رئتي وعينـــي وحنجرتي .. أرسلي لي ملابس صـــوفية .. آه القبر بارد يا أمـي .. وشمس البحر نائية .

دمشق

زكريا تامر